مدرسة القصص
ملخص
المحاضرة الأولى
علاء حامد
Alaa Hamed

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ﷺ:

أهلًا ومرحبًا بكم في هذه اللقاءات الطيبة المباركة، التي نفتتح بها دراسة سورة جديدة.

التعريف بالسورة :

سورة القصص سورة مكية، مليئة بالإيمانيات العالية، والقصص والصراعات، والكلام عن العقيدة، وتثبيت القلوب، وهذه من خصائص السور المكية.

السورة تعرض قصة موسى عليه السلام في مشاهد، منها :

مشهد الطفولة والرضاعة، وقصر فرعون.

مشهد قتله رجلًا خطأً؛ وما بعد ذلك.

مشهد إقامته في مدين، وزواجه من إحدى ابنتي الرجل الصالح.

مشهد عودته إلى أرض مصر مرة أخرى.

مشهد تكليم الله تعالى له، وتأتي في أثناء السورة مواعظ، وعبر، وفوائد، وثمرات.

وتُختَم السورة بذكر قصة قارون، ثم ببيان عاقبة أهل الإيمان وأهل الفساد والكبر، قال تعالى:

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾

[القصص: ٧٦]

الحكمة من قصص الأنبياء في القرآن :

لما أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بقوله:

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]

من وسائل تربية النبي ﷺ وتثبيته تذكيره بما لقيه الرسل قبله من الابتلاء والأذى، وكيف صبروا.

فلا بد إذا طُلِب من الإنسان أن يقتدي بشخص، أن يعرف سيرته، ومواقفه، وكيف تصرف في الشدائد؛ لذلك قصَّ الله على نبيه ﷺ أخبار موسى، ونوح، وإبراهيم، وغيرهم؛ ليكون ذلك تثبيتًا لقلبه، وتعليمًا له ولأمته.

ثم إن النبي ﷺ مأمور بأن يبلغ الغاية في الصبر والقيام بأعباء الرسالة، حتى صار أكمل الأنبياء صبرًا، وأعظمهم احتمالًا للأذى، ولذلك رفعه الله إلى أعلى المقامات، وجعله سيد ولد آدم.

من مقاصد قصص الأنبياء تثبيت قلب النبي ﷺ ومواساته :

قال ﷺ :

«رحم الله أخي موسى، لقد أوذي أكثر من ذلك فصبر»

وفي غزوة أُحد، لما شُجَّ رأسه وكُسرت رباعيته، ذكّر أصحابه بما وقع لنبي من الأنبياء قبله، قال:

«كأني بنبي من أنبياء الله ضربه قومه حتى أدموه، فقال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»

فكانوا له ﷺ أسوةً.

وكان الله سبحانه وتعالى يثبته بهذه القصص، ويواسيه بما لقيه الأنبياء قبله من أذى أقوامهم، فترشده إلى كيفية التعامل، وتؤكد له أن ما يلقاه قد لقيه الرسل من قبله، فيزداد صبرًا وثباتًا.

ثم يقول له:

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣]

كانت قصص الأنبياء سببًا في ثبات الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنها :

تعلِّمهم كيف يواجهون الابتلاءات بالصبر والثبات.

تحذرهم من أخطاء الأمم السابقة حتى لا يقعوا فيها.

تزيد يقينهم بأن الطريق مليء بالابتلاء، وأن العاقبة لأهل الإيمان.

لماذا تكررت قصة موسى عليه السلام أكثر من غيرها؟

قصة موسى من أكثر قصص القرآن ورودًا وتفصيلًا وتنوعًا، وذلك لما بينها وبين قصة النبي ﷺ من تشابه كبير، من أحداث الدعوة والابتلاء، ومواجهة الطغاة، والتعامل مع الأمة.

أوجه التشابه بين موسى عليه السلام والنبي ﷺ :

1) عِظَم الأمة: فلكلٍّ منهما أمة كبيرة، وقد تعامل موسى مع اختلاف طبائع قومه، وتنوع أهوائهم، وكثرة مشكلاتهم وصراعاتهم، وتحمل أذاهم وصبر عليهم.

ولهذا كان الله يعرض هذه النماذج على النبي ﷺ؛ ليتعلم منها، ويربي أصحابه عليها، ويحذرهم من الوقوع في أخطاء الأمم السابقة، كما قال تعالى:

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]

فكانت قصص الأنبياء عبرة للصحابة، ودليلًا عمليًا للنبي ﷺ يرشده إلى كيفية التصرف في المواقف المختلفة.

2) تشريع الجهاد: فكلاهما كُلِّف بالجهاد؛ وقبل موسى عليه السلام لم يكن الجهاد مشروعًا، فلم يكن الأنبياء يقاتلون مع أقوامهم، وإنما كانت سنة الله في الأمم المكذبة أن يهلكها مباشرة، كما وقع مع أقوام نوح، وهود، وصالح، ولوط عليهم السلام.

أما بعد خروج موسى عليه السلام ووصول بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة، شُرع الجهاد، قال تعالى:

﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾

[المائدة: ٢١]

كان أمر الجهاد ثقيلًا على بني إسرائيل؛ لأنه تكليف جديد لم تعرفه الأمم قبلهم، ويؤيد ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن من معاني الآية أن الله تعالى كلَّف موسى عليه السلام بالجهاد بعد أن كانت سنته في الأمم السابقة هي إهلاك المكذبين دون أن يُكلَّف المؤمنون بقتالهم.

3) مواجهة الطغاة :

ومن أوجه التشابه أيضًا أن موسى عليه السلام تعامل مع فرعون بكل قسوته وجبروته.

وكان في قصة موسى من صور مواجهة الطغيان والصبر على الأذى ما يثبّت النبي صلى الله عليه وسلم ويعينه على مواجهة قومه والرد على الشبهات.

وقد وصف النبي ﷺ أبا جهل بأنه فرعون هذه الأمة.

4) التشابه بين التوراة والقرآن :

ومن أوجه التشابه أيضًا أن التوراة هي أقرب الكتب إلى القرآن من حيث المحتوى، ومن حيث الشمول، مع الإيمان بأن التوراة التي أنزلها الله على موسى حق، وأن ما بأيدي الناس اليوم قد دخله التحريف والتبديل.

5) علاقة رسالة عيسى عليه السلام برسالة موسى عليه السلام :

جاء عيسى عليه السلام مصدقًا للتوراة ومجددًا لشريعة بني إسرائيل، ومخففًا عنهم بعض ما حُرِّم عليهم

كما قال تعالى:

﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾.

فكان سيدنا عيسى عليه السلام يتعبد بالتوراة، ومعه الإنجيل الذي اشتمل على أحكام كانت مناسبة لذلك الوقت.

لماذا قالت الجن: «من بعد موسى» ولم تقل: «من بعد عيسى»؟ لما سمعت الجن القرآن لأول مرة،

قال الله تعالى:

﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٣٠)﴾[الأحقاف: ٢٩-٣٠]

ولم يقولوا: من بعد عيسى.

وذلك لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا﴾، أي: كتابًا كاملًا، شاملًا، يشبه التوراة في كمالها وشمولها، ولذلك قالوا: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾.

من وجوه فضل الله على أمة محمد ﷺ: موقف موسى بطلب تخفيف الصلاة :

عندما فُرضت الصلاة أولًا خمسين صلاة في اليوم والليلة، أشار موسى عليه السلام على النبي ﷺ أن يسأل ربه التخفيف، حتى صارت خمس صلوات في العمل، وخمسين في الأجر.

وهذا من فضل الله على هذه الأمة، ومن المواقف التي يُذكر بها موسى عليه السلام بالخير.

نتعلم من ذلك أهمية الاستفادة من خبرات أهل التجربة؛ فقد يختصرون علينا الطريق، وينبهوننا إلى أمور لا ندركها من خلال التجربة وحدها.

(الآية: ١)

﴿طسٓمٓ﴾

الحروف المقطعة في بداية السورة:

أولًا: اختلاف العلماء في معنى الحروف المقطعة:

اختلف أهل العلم في معنى الحروف المقطعة التي جاءت في أوائل بعض السور: هل لهذه الحروف معانٍ محددة مرادة، أم أن علم حقيقتها مما استأثر الله به، مع وجود حِكَمٍ محتملة لورودها؟

من أقوال العلماء في الحروف المقطعة:

1. من الأقوال التي نُقلت عن بعض المفسرين أنها رموز لمعانٍ معينة، كمن قال في ﴿الر﴾: أنا الله أرى، وفي ﴿الم﴾: أنا الله أعلم.
2. لفت انتباه السامع: كانت اللغة جزءًا أساسيًا من حياة العرب، وكانوا شديدي الاهتمام بالكلام وأساليبه، ولهم أسواق للشعر ومنافسات في الفصاحة والبيان.

فعندما يسمع العربي ﴿طسٓمٓ﴾ تكون وسيلة لإثارة الانتباه وتشويق السامع.

3. إقامة التحدي وإظهار إعجاز القرآن: فهي حروف تتكون منها لغة العرب، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن.

قال تعالى:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس :٦٩]

فالنبي ﷺ لم يكن شاعرًا، ومع ذلك جاء بالقرآن الذي أعجز العرب، مع كونهم أهل الفصاحة والبيان، فدل ذلك على أنه وحي من الله تعالى.

4. ارتباط الحروف المقطعة بذكر القرآن والكتاب: من الملاحظ أن الحروف المقطعة يأتي بعدها في عدد من السور ذكر الكتاب أو القرآن وآياته، ومن ذلك: ﴿طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ(٢)﴾

وكذلك قوله تعالى:

﴿الٓمٓ (١) ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)﴾[البقرة: ١-٢]

وهذا يلفت النظر إلى عظمة القرآن وإعجازه، وأنه مؤلف من الحروف العربية التي يعرفها العرب ويتكلمون بها.

(الآية: ٢)

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

﴿تِلۡكَ﴾: اسم إشارة للبعيد، والإشارة بالبعيد هنا تتضمن معنى التعظيم ورفعة الشأن.

﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾

أي: الكتاب الواضح البيّن المُبيِّن للحق والهدى والأحكام والعقائد والشرائع، ولا غموض في أصوله.

وهذا يختلف عما كان عليه بعض أهل الكتاب من إخفاء بعض الكتاب وتحريف اللفظ والقراءة بما يوهم أنه من الكتاب، أما القرآن فهو كتاب مبين، يفهم العربي منه قدرًا من معانيه بحسب معرفته باللغة والسياق، مع حاجة بعض الآيات إلى البيان والتفسير.

لماذا لم يفسر النبي ﷺ القرآن كله للصحابة؟

كان الصحابة أهل لغة، وشهدوا نزول القرآن، فكانوا يفهمون كثيرًا من القرآن بلغتهم وسياقاته، مع تفاوتهم في الفهم، وكانوا يرجعون إلى النبي ﷺ فيما أُشكل عليهم من معاني الآيات أو الألفاظ أو الأحكام، أو كيفية الجمع بين آيتين.

ومع اتساع الفتوحات ودخول غير العرب في الإسلام وتطور الاستعمال اللغوي، ومرور الأجيال ضعفت الصلة باللغة العربية ازدادت الحاجة إلى علوم التفسير واللغة والبيان.

(الآية : ٣)

﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾

﴿مِن نَّبَإِ﴾ يفيد التبعيض؛ أي أن الله تعالى يقص على النبي ﷺ بعض خبر موسى وفرعون.

والنبأ: هو الخبر العظيم.

أي: من الخبر العظيم المتعلق بموسى وفرعون.

﴿بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: نقص عليك خبر موسى وفرعون خبرًا حقًّا ثابتًا، لا كذب فيه ولا باطل.

﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾

أي أن القصص القرآني ينتفع به أهل الإيمان؛ تصديقًا واعتبارًا وتدبرًا.

من خصائص السرد القرآني أنه قد يختصر عرض مشاهد الشر، ويفصل في بيان العواقب والمآلات والعبر، ولا سيما ما يتعلق بنصر المؤمنين وهلاك الظالمين؛ ففي قصة موسى عليه السلام، عرض القرآن ظلم فرعون واستعلاءه واستضعافه لبني إسرائيل في عبارات موجزة، ثم فصل في أحداث القصة وبيّن مآلاتها، وما انتهى إليه أمر المستضعفين من النصر والتمكين، وأمر فرعون وقومه من الهلاك؛ لما في ذلك من إبراز العبرة وترسيخ معاني الإيمان والصبر واليقين بنصر الله، ثم عندما يأتي الحديث عن الخير

يقول الله تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [القصص:٥]

وقال تعالى:

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ﴾[القصص:٦]

ثم يبدأ القرآن في تفصيل أحداث القصة وبيان تدبير الله لإنقاذ موسى عليه السلام:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

منهج القرآن في عرض الشر والخير :

يفصّل القرآن في عرض الخير وعواقبه، وقد يختصر مشاهد الشر ويبرز مآلاته؛ لأن الإنسان يتأثر بما يُعرض عليه ويتذكره أكثر

وتتضح هذه السمة في قصتي يوسف وموسى عليهما السلام.

بداية محنة بني إسرائيل في مصر :

بدأت إقامة بني إسرائيل في مصر في عهد يوسف عليه السلام فبعد أن فقده يعقوب عليه السلام، مر يوسف بمراحل متعددة، من بيت امرأة العزيز إلى السجن، ومكّنه الله في الأرض، فدبّر أمر البلاد في سنوات الرخاء والجدب، فكان سببًا في حفظ الناس من آثار المجاعة، ثم التقى بإخوته، ثم قدم يعقوب عليه السلام وأهله إلى مصر، واستقر بنو إسرائيل فيها.

مكانة بني إسرائيل في عهد يوسف عليه السلام :

كان بنو إسرائيل يعيشون في مصر في عهد يوسف عليه السلام، وكانوا يحظون بمكانة ومعاملة حسنة تقديرًا ليوسف عليه السلام.

ويبدو أن حكام مصر آنذاك كانوا يحسنون إلى بني إسرائيل، أما تحديد هويتهم، وهل كانوا من الهكسوس أم غيرهم، فمسألة لا تشغلنا هنا؛ لأنها محل أقوال متعددة، وقد تتدخل فيها الأهواء في تفضيل فئة على أخرى.

ولما تغير الحكم بدأ اضطهاد بني إسرائيل، وكان فرعون صاحب سلطان وملك في مصر، فطغى وتجبر، فتغيرت معاملة بني إسرائيل وظهرت العداوة تجاههم؛ لأنهم كانوا من أتباع الحكام السابقين، وقد استعبد فرعون بني إسرائيل ولم يكونوا قادرين على الخروج من مصر أو العيش كما كانوا في عهد الحكام السابقين، فأصبح المصريون يُعاملون معاملة، وبنو إسرائيل يُعاملون معاملة أخرى، وتعرضوا للاستضعاف والظلم.

كان فرعون يستعبد الجميع بدرجات مختلفة، وكان بنو إسرائيل أكثر الفئات تعرضًا للأذى؛

وهو الذي قال لأهل مصر عامةً:

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤]

وفي عهد فرعون وُلد موسى عليه السلام، وكان هارون عليه السلام أكبر منه سنًّا.

(الآية: ٤)

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

﴿عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

أي: تجبر وطغى في الأرض

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾

الشيع: أي فرق وطوائف، أهلها: أهل مصر؛ فكان يقتل بعضهم، ويستخدم بعضهم في أعمال البناء، ويستخدم النساء في خدمة البيوت، ويقتل الأولاد.

﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾

وهي بنو إسرائيل.

في البداية كانت المحنة تتمثل في الاستضعاف والمعاملة المهينة، وكان يُقتل الرجال أحيانًا، أو أن بعضهم يموت من شدة العمل، ويُبقي على النساء ليخدمن في البيوت.

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾

ثم جاءت المرحلة الأصعب؛

حين وصل إلى فرعون خبر من بعض الكهنة عنده، والله أعلم بسبب هذا الخبر، هل كان بسبب رؤيا أو منام رأوه أو نحو ذلك.

ومضمونه أن بني إسرائيل سيولد منهم غلام، وسيكون على يديه انتهاء ملك فرعون.

صدَّق فرعون هذا الخبر، فأمر بقتل أبناء بني إسرائيل الذكور؛ خوفًا على ملكه من هذا الفتى الذي سيولد. أما الإناث فلم تكن مشكلة بالنسبة إليه، وإنما كان كل ذكر يولد من بني إسرائيل يُقتل.

القتل عامًا وتركهم عامًا :

وتذكر بعض الروايات أنه كان يقتل الصبيان عامًا ويتركهم عامًا. حيث تدخل بعض رجاله وقالوا له: كيف نقتل جميع الصبيان؟ إذا استمر الأمر عامًا بعد عام، فلن يبقى من بني إسرائيل أحد، ونحن بحاجة إليهم في العمل.

وُلد سيدنا هارون عليه السلام في العام الذي لم يكن يُقتل فيه الصبيان، أما سيدنا موسى عليه السلام، فوُلد في العام الذي كان يُقتلون فيه.

مراقبة النساء الحوامل :

كان إذا ظهر الحمل على امرأة من بني إسرائيل، يبلغ عنها رجال الأمن، فيُسجل اسمها، وفي أي شهر من الحمل، ويعرفون عنوانها ويحددون تقريبًا موعد ولادتها، ويتابعونها فإذا جاء يوم الولادة؛ وولدت بنتًا تركوها، أما إذا ولدت ولدًا قتلوه.

﴿وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾

أي: يُبقيهن أحياء، ليخدمن، وكان يفصل النساء تمامًا عن رجالهن وأسرهن.

من وسائل الظالمين في إضعاف الأمم :

أولاً: تفكيك الأسرة:

يُبقَى على النساء للخدمة، ويُحرم الرجال من رعاية أسرهم والدفاع عنها، فيُفصل بينهم، ويُقتل الصبيان، فتتفكك الأسرة وتنهار الروابط الزوجية.

ثانياً: إضعاف دور الرجل وتشتيت المجتمع لتحويله إلى فئات متفرقة وشيع.

ثالثاً: تقليل الإنجاب: حتى يصير الفرد سبباً في تحجيم نسله، وإن لم يكن قتلاً مباشرًا، فهو تمزيق للنسيج الاجتماعي.

رابعاً: إشعال الصراعات والفتن الداخلية بين أبناء الأمة، فينشغل الناس بالاقتتال الداخلي وتنفيذ أجندات تخدم خصومهم، دون حاجة الظالم للتدخل المباشر.

النتيجة النهائية:

أمة غارقة في صراعاتها الداخلية، تسهل السيطرة عليها واستضعافها وتفتيتها إلى طوائف وشيعٍ متفرقة.

(الآية: ٥)

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

وفي قمة الاستضعاف والهوان، يأتي وعد الله: ﴿وَنُرِيدُ﴾ نريد أن نتفضل على الذين استُضعفوا، بأن إرادة الله ستتحقق، وسيأتي النصر من حيث لا يحتسب الناس.

سُنَّة النصر بعد الاستضعاف:

لكل ظالم نهاية، مهما طغى وتجبر، ولكل مستضعف يوم تمكين، مهما طال قهره.

قد يأتي النصر سريعًا، وقد يتأخر لحكمة، وقد يبتلي الله المؤمنين طويلًا، ويستوفي الاستضعاف أقصى درجاته، فتتحقق سنة الله في التمكين والاقتصاص.

وقيل للإمام الشافعي:

أيهما أحب إليك: أن يُمكَّن الرجل أم يُبتلى؟ فقال: **«لا يُمكَّن حتى يُبتلى».**

وقال الله سبحانه:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة:٢١٤]

وفي أشد لحظات استضعاف يوسف عليه السلام، حين أُلقي في الجب وبِيع عبدًا، كان الله يدبّر له أمره حتى بلغ التمكين. فالضعف قد يكون طريقًا إلى النصر والتمكين،

قال النبي ﷺ:

«وهل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم».

فهذه إرادة الله الكونية التي لا يستطيع أحد منعها ولا ردها .

قد يرى المظلوم جزاء ظالمه في الدنيا قبل الآخرة، فيكون ذلك شفاءً له. وقد بيّن القرآن أن التمكين يكون للمستضعفين إذا أخذوا بأسباب النصر، وليست أسباب النصر مقصورة على السلاح والقوة وحدها.

أسباب التمكين للمستضعفين :

إذا فقد المستضعف القوة المادية، فإن معه أسلحة عظيمة، منها:

1. **الصبر واليقين والتوكل على الله وحسن الظن به.**
2. **الاستعانة بالله،**

كما قال موسى عليه السلام لقومه:

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]

3. **الصبر في زمن الاستضعاف بمنزلة السيف في زمن التمكين، وقد جعله الله سبباً مباشراً للوراثة والتمكين،**

كما في قوله تعالى:

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]

ولم يقل "بما قاتلوا" بل "بما صبروا"؛ لأنهم لم يملكوا قوة المواجهة حينئذٍ.

والصبر هنا يشمل: الرضا بالله، وعدم الجزع، مع الثبات والتقوى.

4. **العفو والصفح؛**

كما في قوله تعالى:

﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]

5. **إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.**

لقوله تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠]

العلاقة بين العبادة والتمكين:

العبادات من أسباب التمكين؛ فقد أوحى الله إلى موسى وهارون في ذروة الاستضعاف:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]

الصلاة من أعظم ما يعين المؤمنين على الثبات في زمن الابتلاء.

طريق التمكين: "افعل ما تستطيع"

الأخذ بما يستطيع الإنسان من أسباب الخير والطاعة؛ فالله يختبر العبد في المتاح، فإذا نجح فيه، فتح له غير المتاح؛ فالتمكين لا يأتي إلا بعد النجاح في امتحان الاستضعاف بالصبر والتقوى والعمل الصالح.

إذا تساءلنا لماذا لم يتحقق التمكين بعد، فلننظر إلى واقعنا !

ضعف في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

ضعف في الدعوة إلى الله والعلاقة الحقيقية به.

انتشار الموبقات: التبرج، الربا، الزنا، الفواحش.

والواجب علينا إصلاح أنفسنا، والقيام بما نستطيع من الإيمان والتقوى والصبر والعمل الصالح، مع الأخذ بالأسباب، دون تحديد زمن للتمكين.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

﴿أَئِمَّةً﴾ أي: يُقتدى بهم.

وقد مَنَّ على بني إسرائيل؛ بما صبروا واتقوا، وأدوا ما استطاعوا، فدبر الله لهم الأمر حتى أصبحوا أئمة ووارثين.

(الآية:٦)

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾

يحذرون : يخافون من زوال ملكهم بسبب بني إسرائيل، ومن ظهور موسى عليه السلام الذي سيكون سببًا في هلاك فرعون وزوال ملكه.

(الآية: ٧)

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

أي: أرضعيه.

إن النصر والإنجاز لا يبدأان دائمًا من الشخص الذي يظهر في الواجهة، بل قد يبدأان من شخص خلف الكواليس كان له أثر في تربيته وصناعته وإعداده.

وفي سياق قصة موسى عليه السلام، يبرز دور الأم في صناعة الأجيال؛ فقصة موسى التي تضمنت مواجهته لفرعون وزوال ملكه، بدأت من أمٍ ترضع طفلها، وتعتني به وتحفظه في أصعب الظروف.

ليست كل امرأة مطالبة بأن تكون داعية أو عالمة أو أن تظهر أمام الناس؛ قد يكون دورها في صناعة من سيظهر ويؤثر في الناس.

قد تكون أمًا تربي عالمًا أو داعية.

أو أختًا ترعى إخوتها وتعينهم.

أو زوجة تهيئ لزوجها البيئة المناسبة، وتدعمه وتسنده، كما كانت خديجة رضي الله عنها مع النبي ﷺ.

وكذلك من يقف خلف الشخص الناجح من أمٍ وزوجة وأخت وصديق وفريق، قد يكون لهم أثر أساسي في نجاحه،

قال تعالى:

﴿ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١]

ثم قال سبحانه بعد أن رد موسى إليها:

﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣]

وقال عن مريم عليها السلام:

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ [مريم: ٢٤]

فالله أعلم بخلقه، وأعلم بما في القلوب وما يعتري النفوس من خوف وحزن ولا سيما قلب الأم، وقد يكون انكسارها أشد مما ندرك.

وتأملوا أم موسى: كانت تعلم بوعد الله أن ابنها سيرد إليها وسيكون من المرسلين، ومع ذلك كانت شديدة القلق حتى كادت أن تُبدي أمره.

ومن عناية الله بها أنه حوّل خوفها إلى أمان، ووفّى لها بوعده فردَّه إليها.

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾

قد يجعل الله المحنة نفسها سببًا للفرج، فثق بالله؛ فقد يأتي الخير من حيث لا تتوقع.

(الآية: ٨)

﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾

يصل التابوت إلى القصر، فتراه الجواري، ويأخذنه ويعتنين به.

ألقى الله على موسى محبة منه، فكان محبوبًا.

(الآية: ٩)

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾

أخذ آل فرعون موسى إلى امرأة فرعون، فلما رأته أحبته حبًا شديدًا، فتعلقت به، وكانت مؤمنة بالله، وضرب الله بها مثلًا للمؤمنين.

قد يكون ما تراه نقصًا في حياتك سببًا لخير عظيم لا تدركه الآن .

﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾

فتحقق رجاؤها؛ فكان موسى قرة عين لها، وكان فيه خير ونفع لها.

وهذا من حسن الظن بالله والفأل الحسن والكلمة الطيبة، وليس مما يسمى «قانون الجذب». فقد كان النبي ﷺ يحب الفأل الحسن والكلمة الطيبة.

وفي الحديث القدسي :

«أنا عند ظن عبدي بي»

ليست المسألة طاقة أو جذبًا، وإنما هي حسن الظن بالله والتوكل عليه مع الأخذ بالأسباب. فنقول: «إن شاء الله سيكون خيرًا، وسأنجح بإذن الله»، دون أن نجزم بما لم يقدّره الله.

أما التشاؤم وسوء الظن بالله، فهما من الأمور المذمومة، وينبغي للمؤمن أن يحسن الظن بالله مع الأخذ بالأسباب؛ وأن تكون كلماتنا طيبة، مع اعتقاد أن الأمر كله بيد الله .

الرواية التي تزعم أن فرعون قال: «أما لك فنعم، وأما لي فلا»، فهي من الإسرائيليات ولا تثبت.

العبرة ليست بأن الكلمات تجذب الأحداث، وإنما بحسن الظن بالله ودعائه والتوكل عليه مع الأخذ بالأسباب.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

فلم يشعر فرعون وآله بما سيؤول إليه أمر موسى، وأن هذا الطفل الذي التقطوه سيكون سببًا في هلاكه وزوال ملكه.

للصالحين أثر في تقليل الشر:

وجود الصالحين في البيئات الفاسدة سبب لدفع الشر.

فقد كانت امرأة فرعون مؤمنة في بيت فرعون، مع كفره وطغيانه، وكان موقفها من الأسباب التي سخّرها الله لحفظ موسى وإنقاذه.

وكذلك مؤمن آل فرعون نصر الحق، ودافع عن موسى عليه السلام

وليس من اللازم أن تكون مغادرة البيئة الفاسدة هي الحل في كل حال؛ فقد يكون بقاء الإنسان فيها، إذا كان قادرًا على الثبات والتأثير ودفع الشر، سببًا في خير عظيم، وقد يكون الخروج منها أصلح في حالات أخرى، بحسب القدرة والمصلحة.

لا تزهد في كلمة حق؛ فقد تكون كلمة منك سببًا في إنقاذ إنسان أو دفع شر، وأنت لا تعلم إلى أين يصل أثرها.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.